# الوعيُ السُنَني والاختلال الحضاري، السقوط الفرعوني نموذجًا




من منهجيات القرآن الكريم التي تتجلى في تناوله للأشياء والأحياء أنه لا يقدم أي قصة من قصصه على سبيل الوعظ أو الوصف، ولا يربطها بزمان مخصوص ولا مكان محدد، بل يسوقها في صورة منهضة، حيّة خالدة، عابرة للزمان والمكان والأشخاص، ويعتني فيها بالعناصر التي تشكل النموذج المعرفي والعملي على حد سواء، وهذا سر من أسرار ديمومة العطاء القرآني، وصيرورته لكل زمان ومكان، كما أنه ملمح من ملامح إعجازه وخلوده.

وحين قدم القرآن قصة فرعون كذلك لم يقدمها باعتبارها حكاية تاريخية محضة، وإنما وضع أمام النظر نموذجًا مكتمل العناصر لبنية الاستعلاء والإفساد؛ فقد اختزل المشهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].
فالآية لا تذكر حادثة منفردة، وإنما ترسم بنية متكاملة تبدأ بالعلو، ثم تتخذ صورة اجتماعية وسياسية في التفريق، ثم تتحول إلى استضعاف، ثم إلى ممارسة قهرية منظمة، وتنتهي بالحكم الكلي: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.
ويؤكد الطبري أن معنى العلو في قوله تعالى: ﴿عَلَا﴾ هو التجبر والتكبر والقهر، وأن ﴿جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ تعني جعلهم فِرَقًا متفرقة، وأن الاستضعاف بلغ الاستعباد والقتل والإهانة ()، كما يبين ابن كثير أن فرعون كان يقسم الناس أصنافًا ويوظف كل صنف فيما يريد من شؤون دولته، وكان يستضعفهم، وكانوا في ذلك الوقت خيارَ أهل زمانهم، ويستعملهم في أخس الأعمال، ويُكدهم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إهانةً لهم واحتقارًا ()
والسؤال الذي نقف أمامه هنا هو: كيف أنتجت منظومة فرعون مسارًا حضاريًا هابطًا؟ وما الآليات التي جعلت الاختلال يتراكم حتى انتهى إلى الانهيار؟ وهذا هو المدخل إلى بناء فقه تشخيص السقوط الحضاري، وهذا ما نَفيده من فقه السنن والوعي بها؛ لذا سيكون الحديث حول نقاط محددة تكون في مجموعها هي التجلي الأظهر لأثر الوعي بالسنن في تشخيص هذا النموذج الطاغية، ومدى أثره في مسار الهبوط، وسأتتبع هذه العناصر في نقاط مختصرة على النحو الآتي:

(1) اختلال وظيفة القوة وبداية المسار الهابط:
النموذج الفرعوني امتلك قوة كبرى وصفها القرآن الكريم بأنها أوتاد، في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: 10]، وهي عبارة قرآنية جامعة تبين مدى قوته وقدرته المادية في حضارة شهد التاريخ ببقائها حتى الآن وحارت العقولُ في أسرارها، لكن النموذج الفرعوني لم يحترم هذه القوة ولم يوظفها في مسار الخير، بل يبدأ النموذج الفرعوني من اختلال العلاقة بين القوة ووظيفتها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 4].

العلو هنا ليس مجرد امتلاك القوة، وإنما تحول القوة إلى استعلاء. وقد فسر الطبري العلو بالتجبر والتكبر وقهر الناس ()، وهذه نقطة منهجية مهمة؛ إذ لا يكون امتلاك القوة في ذاته مرضًا حضاريًا، وإنما يبدأ المرض عندما تنفصل القوة عن وظيفتها الأخلاقية والعمرانية، فتتحول من وسيلة لحفظ المجتمع إلى وسيلة لإخضاعه.

من هنا يظهر لنا أول عنصر من عناصر الهبوط الحضاري والسقوط لهذا النموذج في توظيف القوة التي هي أحد أهم عناصر الحضارة – توظيفها في عكس مراد الإصلاح وقهر الإنسان واستعباده، وإذا تحولت القوة من وظيفة الحماية والإصلاح إلى وظيفة الاستعلاء والهيمنة بدأت بنية الانحراف الحضاري والسقوط، وهذا يفسر التعبير القرآني: ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، ويأتي القرآن في نهاية السورة الكريمة ليضع الضابط المقابل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: 83].

وتلك منهجية القرآن العظيم الذي يشخص الداء ويصف الدواء؛ حتى تعي الأمة نقاط الخلل وتسعى إلى محطات الإقلاع والشهود؛ فالنهي عن العلو والفساد يمثل مقابلاً مباشرًا لبنية فرعون؛ وقد ظهر العلو الفرعوني في التكبر والتجبر، والظلم والتعدي، ليس فقط على كرامة الإنسان، بل تجاوز حتى وصل إلى ادعاء الربوبية كما سجل القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24–20].

إن اختلال وظيفة القوة يؤدي إلى الاستعلاء ثم تأتي بداية إنتاج الاختلال الحضاري.

(2) تفكيك المجتمع وتحويل الاختلاف إلى أداة للسيطرة:

لم يقف فرعون عند امتلاك القوة، وإنما وظفها في إعادة تشكيل المجتمع على أساس التفريق: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: 4]، ذلك أن فرعون كان يعامل الفئات بصورة مختلفة: يذبح طائفة، ويستعبد أخرى، ويعذب أخرى؛ فقد جعلهم "فرقاً وأصنافاً في الخدمة والسحر"()، وتتضح هنا آلية أكثر عمقًا من مجرد التفرقة، ويبين الطاهر السر البلاغي في اختيار هذه المفردة: (شيعا) دون ما سواها بقوله: " ومن البلاغة اختياره هنا ليدل على أنه جعل أهل بلاد القبط فرقا ذات نزعات تتشيع، كل فرقة إليه وتعادي الفرقة الأخرى ليتم لهم ضرب بعضهم ببعض، وقد أغرى بينهم العداوة ليأمن تألبهم عليه كما يقال «فرق تحكم» وهي سياسة لا تليق إلا بالمكر بالضد والعدو ولا تليق بسياسة ولي أمر الأمة الواحدة ().

لقد جعلهم فِرقاً "يشيِّعونه في كلِّ ما يُريده من الشرِّ والفساد، أو يشيِّعُ بعضُهم بعضاً في طاعته، أو أصنافاً في استخدامه، يستعملُ كلَّ صنف في عملٍ ويُسخِّرُه فيه من بناءٍ وحرثٍ وحفرٍ وغيرِ ذلكَ من الأعمالِ الشَّاقةِ ومَن لم يستعملْه ضربَ عليه الجزيةَ، أو فرقاً مختلفةً قد أغرى بينهم العداوةَ والبغضاءَ لئلاَّ تتفقَ كلمتُهم"().

لقد قام بتحويل المجتمع من لبنات متعاونة إلى جماعات متفاوتة في الحقوق والوظائف والقرب من مركز القوة؛ وبذلك يصبح المجتمع عاجزًا عن تشكيل قوة جماعية مستقلة.

وهنا ينبغي التفريق بين التنوع الطبيعي الذي لا ينافي العمران، بل هو وسيلة من وسائل دعمه وتقويته، والتفريق السياسي والاجتماعي الذي يحول الاختلاف إلى وسيلة لإضعاف المجتمع؛ لأنه تقسيم على أساس الطبقة أو العرق أو الفكر.

إنه إذا تحولت الفوارق الاجتماعية من تنوع وظيفي إلى تفكيك تنافري، أصبحت أداة لإضعاف القدرة الجماعية وإدامة الهيمنة، وتلك وسيلة الطغاة والمستبدين على مر العصور.

من هنا يتضح أن التفريق وجعل الناس شيعًا في النموذج الفرعوني ليس نتيجة ثانوية للاستبداد، بل آلية من آليات إنتاجه واستمراره.

ويظهر من سياق الآيات الكريمة التي ذكرت في سياق قصة فرعون أنه استخدم التأثير الإعلامي ضد موسى وبني إسرائيل؛ حيث قام ببث الشائعات، وبث الأكاذيب وترويجها بين شعبه رغبة في تفريقهم وصرفهم عن دعوة موسى، ولتثبيت حكمه، وعاونه على ذلك ملأه الذين يتلقفون أمره ويسبحون بذكره وشكره وحسن سياسته؛ فقد اتهم موسى بالإفساد وطلب من قومه أن يخلوا بينه وبين موسى لقتله، حكى الله تعالى قول فرعون إذ قال: ﴿ ذَرُونِيَ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّيَ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: 26]، وما زال يكررها حتى ترسخت الشائعة في أذهان الملأ وتحولت إلى حقيقة، فأصبحوا يطالبونه بوقف موسى عند حده حتى لا يُفسد في الأرض!()

وهذا ما بدا في قوله تعالى على لسانهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 127].

لذا أدرك الكواكبي أصل الداء ومكمن العلة ورصدها بقوله: " وحيثُ إني قد تمحّص عندي أنّ أصل الدّاء هو الاستبداد السّياسي ودواؤه دفعه بالشّورى الدّستورية. وقد استقرَّ فكري على ذلك —كما أنّ لكُلّ نبأ مستقراً— بعد بحث ثلاثين عاماً ... بحثاً أظنّهُ يكاد يشمل كلّ ما يخطرُ على البال من سبب يتوهّمُ فيه الباحث عند النظرةِ الأولى، أنهُ ظفر بأصل الدّاء أو بأهمّ أصوله، ولكنْ لا يلبث أنْ يكشف له التّدقيق أنّه لم يظفر بشيء، أو أنّ ذلك فرعٌ لا أصل، أو هو نتيجة لا وسيلة ().

إن احتكار القوة ينتج تفكيك الاجتماع، ثم ضعف المقاومة الجماعية، ثم سهولة السيطرة.

(3) صناعة الاستضعاف وتعطيل الفاعلية:

العامل التالي من عوامل السقوط الحضاري الذي يمثله النموذج الفرعوني هو عامل الاستضعاف، فتأتي بعد التفريق مرحلة أخطر: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ [القصص: 4]. والتعبير القرآني بالغ الدلالة حين قال: ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ بصيغة المضارع، أي أن الضعف أصبح عملية مقصودة وممنهجة ومنتجة. ودليل هذا أنه كان يستمر في استعمالهم وقتل أولادهم بطريقة منظمة؛ حتى فسر الرازي هذا الاستضعاف بأنه " يستخدمهم ويذبح أبناءهم ويستحيي

نساءهم"().
وقد بين البغوي أن القرآن سمى ذلك استضعافًا لأنهم عجزوا عن دفع فرعون عن أنفسهم، وفسر ذلك بما مارسه عليهم من قتل واستعباد وإذلال ().
وهنا تظهر نقلة سننية مهمة في التحليل هي: أن الضعف الحضاري ليس دائمًا حالة طبيعية؛ فقد يكون نتيجة بنية تُنتج الضعف بصورة مستمرة، والوعي بهذه المنهجية من أهم أسباب الخلاص منها، وهذا يقود إلى سنة تشخيصية بالغة الأهمية: أنه إذا تحولت السلطة أو البنية الاجتماعية إلى آلية لإنتاج العجز وفقدان المبادرة، انتقل الضعف من حالة عارضة إلى بنية استضعاف.
وهنا يصبح الاستضعاف أخطر من القهر المباشر؛ لأنه لا يكتفي بمنع الفعل، بل يضعف القدرة على الفعل مستقبلًا.
وهذا ينطبق على نماذج كثيرة في حياتنا تنتقل فيها الأمة من دور المقهور إلى دور المسحور، وتصبح كما قيل: كالحمامة ينظر إليها الثعبان فتنشل وتنحل فلا تطير وكان بمكنتها أن تطير.
وهذه النقطة ستظهر لها أهمية كبيرة عند مقارنتها بالنموذج الموسوي في المبحث الثاني؛ لأن النهوض سيبدأ من الطرف المقابل: استعادة الفاعلية، والقدرة على الانعتاق ثم الانطلاق.

(4) فساد الوعي وإعادة إنتاج الهيمنة:
من عناصر الهبوط الحضاري العمل على إفساد الوعي العام والرغبة في الهيمنة عبر الرأي والتأثير، فيأتي دور صناعة الرأي الفاسد من خلال الإعلام الفاسد. إن التأمل في النموذج الفرعوني ورصد القرآن الكريم لزواياه يكشف لنا أن السيطرة لا تستمر بالقوة المادية وحدها، بل بوسائل أخرى معاونة، تلك التي قال في وصفها القرآن الكريم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54].
وهذه الآية لها دلالة عالية في كشف النموذج الفرعوني؛ لأنها تكشف البعد المعرفي والنفسي للهيمنة.
وقد فسر ابن عاشور: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ بأن فرعون أثّر في نفوسهم بتمويهه حتى أسرعوا إلى طاعته، وبيّن أن الاستجابة لم تكن مجرد نتيجة للقوة، بل ارتبطت بفساد سابق في حال القوم، أي فتفرع عن نداء فرعون قومه أن أثّر بتمويهه في نفوس ملئه فعجلوا بطاعته بعد أن كانوا متهيئين لاتباع موسى لما رأوا الآيات. فالخفة مستعارة للانتقال من حالة التأمل في خلع طاعة فرعون والتثاقل في اتباعه إلى التعجيل بالامتثال له كما يخف الشيء بعد التثاقل.
والمعنى يرجع إلى أنه استخف عقولهم فأسرعوا إلى التصديق بما قاله بعد أن صدقوا موسى في نفوسهم لما رأوا آياته نزولا ورفعا. والمراد بقومه هنا بعض القوم، وهم الذين حضروا مجلس دعوة موسى هؤلاء هم الملأ الذين كانوا في صحبة فرعون ().
ومن هذا النص النفيس من ابن عاشور نلحظ أنهم كانوا مهيئين لهذه الانتكاسة، وفي ذلك دلالة على أمرين:
الأول: قابلية هذه النفوس التي لم تتربَّ تربية مكينة للنُكث والتراجع والاستجابة لأدنى مثير.
الثاني: أن فرعون مرن على هذا الفعل ، وأن هذا الفعل لم يكن مجردًا ولا مرة واحدة، بل أخضع عقولهم لحملات ممنهجة مستمرة حتى تكون عقولهم ألعوبة في يده؛ فبعد أن تتبين لهم الحجة وتتضح المحجة ويستبين الطريق من خلال الآيات البينات ينكصون على أعقابهم مرة أخرى. إذن فهناك مستوى آخر من المرض: الاستبداد بالقوة والاستبداد بالوعي.
وهذا يعني أن النظام الفاسد لا يكتفي بإخضاع الأجساد، وإنما يسعى إلى إعادة تشكيل الإدراك بحيث يصبح الخضوع مقبولًا أو مبررًا.
وهذا ما يعبر عنه مالك بن نبي بمعامل القابلية للاستعمار والاستعباد؛ فقد أشار في كتابه شروط النهضة إلى هذا العامل وسماه: معامل القابلية للاستعمار ().
ونبه إليه ابن خلدون في الفصل الثالث والعشرين من مقدمته تحت عنوان: في أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ().
بل إن القرآن بين هذا العامل في أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].
ذلك لأن "المستبد يفرض نفسه على الناس ويقهرهم على ما يريد وتصبح الدولة في ظله انعكاسا لشخصيته وتعبيرا عن طموحاته ونزواته وشهواته، وتمسح شخصية الأمة وتقل قدرتها على التغيير والتصحيح ومع مرور الزمن تتعفن النفوس وتتعايش مع الذل" ().
وهذه مرحلة أكثر خطورة من القهر المباشر؛ لأن المجتمع هنا قد يشارك بصورة غير واعية في استمرار البنية التي تضعفه.
وهذا يحتاج إلى حصار الفساد بكل صوره وأشكاله؛ ليخرج من دائرة الفساد العام الممنهج إلى دائرة الخطأ الفردي العابر الذي هو شأن البشر في حياتهم، ذلك الخطأ الذي لا يلبث أن يتلاشى أو يتوارى ولا يشكل رأيًا عامًا أو جوًا آسنًا، يهيئ محضنًا عامًا للفساد والإفساد.
وهنا يأتي دور القيادة الراشدة في استعادة الثقة وملأ الإنسان بالثقة والإيمان العميق، وهو ما سيظهر في النموذج الموسوي في إنهاض الإنسان لتحمل الرسالة.

(5) تحويل الفساد من ممارسة إلى منظومة:
لا ينتهي الأمر في القصة إلى مظاهر منفردة؛ بل يحكم القرآن على المنظومة كلها بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].
وهنا تظهر دقة التعبير القرآني حين قال: ﴿كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي أن الإفساد أصبح وصفًا مستقرًا في بنية الفعل؛ حتى قال ابن عطية: " وكان هذا الفعل من فرعون بأن جعل القبط ملوكاً مستخدِمين، وجعل بني إسرائيل عبيداً مستخدَمين، وهم كانوا الطائفة المستضعفة، و {يذبِّح} مضعف للمبالغة

والعبارة عن تكرار الفعل"(). فهو لم يكن فعلًا عابرًا ولا خطأً فالتًا؛ بل كان عملًا مرتبًا ممنهجًا.
إنه كلما انتقل الفساد من سلوك فردي إلى منظومة متشابكة تعيد إنتاجه، ارتفعت كلفة الإصلاح واحتاج تجاوز المرض إلى تغيير في الشروط المنتجة له.

(6) تراكم الاختلال وتحول المرض إلى مسار حضاري:
إذا جمعنا العناصر السابقة فإننا لا نجد أمراضًا متفرقة، بل سلسلة مترابطة:
الأول: اختلال وظيفة القوة ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، وتفكيك الاجتماع ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، وإنتاج الاستضعاف ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾، وتعطيل الفاعلية وإخضاع الإنسان ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، وإفساد الوعي بصورة ممنهجة مرتبة: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾، وتمكن الفساد ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.
بصيغة اسم الفاعل، التي تدل على الاستمرار والدوام، مع رعاية وضعه في جمع كأنه فرد في منظومة متكاملة وليس عملًا فرديًا، بل له سوابق ولواحق.
لذا، فالسقوط الحضاري لا يبدأ بالسقوط النهائي، وإنما يبدأ حين تتراكم اختلالات مترابطة، بحيث يصبح كل اختلال مولدًا لاختلال آخر.

(7) من المرض إلى نقطة التحول:
ليس المقصود من دراسة النموذج الفرعوني القول: إن كل مجتمع يقع في بعض مظاهر الاستعلاء قد وصل إلى مرحلة السقوط النهائي، بل ينبغي التمييز بين:
اختلال جزئي، واختلال متراكم، وبنية مرضية، ومسار حضاري هابط.
فالمؤشر الأخطر ليس وجود المرض، وإنما قدرة المرض على إعادة إنتاج نفسه، وهذا هو الخطر الحقيقي.
إن الاختلال يصبح حضاريًا حين ينتقل من ظاهرة محدودة إلى آلية قادرة على إنتاج مزيد من الاختلالات، وحين تتعطل آليات المجتمع الداخلية لتصحيح المسار.
ومن هنا تظهر أهمية مفهوم نقطة التحول الحضاري، وهي النقطة التي يمكن عندها قطع السلسلة قبل أن تستكمل دورة السقوط.
وهذا ما رآه التاريخ في فترة الجيل القرآني الفريد حتى إن المرأة لتنصح عمر وهي في صحن المسجد في مسألة المغالاة في المهور: ففي سنن سعيد بن منصور بسنده قال: "خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ألا لا تغالوا في صدق النساء فإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ أو سيق إليه إلا جعلت فضل ذلك في بيت المال، ثم نزل فعرضت له امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين كتاب الله عز وجل أحق أن يتبع أو قولك؟ قال: بل كتاب الله عز وجل فما ذلك؟ قالت: نهيت الناس آنفا أن يغالوا في صدق النساء والله عز وجل يقول في كتابه ﴿وَءَاتَيتُم إِحدَىٰهُنَّ قِنطَارا فَلا تَأخُذُوا مِنهُ شَيـًٔا﴾ [النساء: 20]، فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر مرتين أو ثلاثًا، ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: «إني نهيتكم أن تغالوا في صدق النساء ألا فليفعل رجل في ماله ما بدا له»()، وزاد في جامع بيان العلم وفضله: " فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ "().
وإذا لم يُقطع التفريق، يمكن قطعه بإعادة بناء الاجتماع والثقة.
وإذا استمر الاستضعاف، يمكن قطعه باستعادة الفاعلية، واستعادة الثقة بالنفس والاطمئنان إلى قدرة الإنسان على الانعتاق والانطلاق، وهذا ما سيبدو في النموذج الموسوي وتركيزه على هذه المعاني.
وإذا بلغ الأمرُ فسادَ الوعي، صار الإصلاح أكثر تعقيدًا؛ لأنه يحتاج إلى إعادة بناء القدرة على النقد والتفكير.
فكلما تأخر التدخل الإصلاحي من السبب المنتج للخلل إلى مراحله المتأخرة، ازدادت كلفته وتعقدت شروطه.
وهذه قاعدة ستكون أساسية في فقه الأولويات الإصلاحية الذي سيظهر في المبحث الثالث بحول الله تعالى.

(8) المؤشرات السننية للمسار الحضاري الهابط:
إذا تتبعنا النموذج الفرعوني وحديث القرآن عنه وتصويره له أمكننا أن نتلمس عددًا من المؤشرات التشخيصية التي تبين هبوط المسار الحضاري وانحداره على النحو الآتي:
مؤشر اختلال وظيفة القوة: هل تتحول القوة إلى امتياز لصاحبها بدل أن تكون مسؤولية تجاه المجتمع؟
مؤشر تفكيك الاجتماع: هل تتحول الاختلافات إلى آليات للاستقطاب والإقصاء؟
مؤشر الاستضعاف: هل يفقد الأفراد والجماعات والمجتمع عمومًا القدرة على المبادرة والمشاركة؟
مؤشر فساد الوعي: هل تتراجع القدرة على النقد، ويصبح الخطاب المهيمن قادرًا على صناعة القبول؟
مؤشر تعطيل التصحيح: هل تستطيع المؤسسات الاعتراف بالأخطاء وتصحيحها؟
مؤشر تراكم الفساد: هل تعالج المشكلات في جذورها أم يعاد إنتاجها بصورة مستمرة؟
ومن هنا لا يصبح النموذج الفرعوني مجرد نموذج تاريخي، وإنما أداة إنذار.
والأمر المهم أن هذه المؤشرات لا تعني حتمية السقوط؛ وإنما تعني أن المجتمع يتحرك في اتجاه سنني ينبغي الانتباه إليه وتصحيحه.
إن القيمة العملية لهذا النموذج لا تتمثل في إسقاط شخصية فرعون على شخصيات أو دول معاصرة، فهذا مما ينبغي الاحتراز منه منهجيًا؛ وإنما تتمثل في استخراج الآليات السننية.

فلا نقول: هذا النظام فرعوني، وإنما نسأل: هل توجد فيه آلية من آليات الاستعلاء؟ ثم: هل تتحول هذه القوة إلى تفريق؟ ثم: هل ينتج التفريق استضعافًا؟ ثم: هل يؤدي الاستضعاف إلى تعطيل الفاعلية؟
ثم: هل يعاد إنتاج الخلل عن طريق السيطرة على الوعي؟
فبهذه الطريقة يتحول القصص القرآني إلى منهج تشخيص، دون الوقوع في الإسقاط التاريخي المباشر.
إن تشخيص السقوط لا ينبغي أن ينظر إلى النتيجة النهائية، وإنما إلى السلسلة التي أنتجتها؛ لأن إمكانية الإصلاح تظل قائمة ما دام المسار قابلًا للقطع، وكلما كان التدخل أقرب إلى السبب المنتج للخلل كان أقدر على تغيير اتجاه الحركة الحضارية.